الرؤى التائهة والتراث المظلوم

البحث عن الحقيقة ديدن الحكماء والكتاب والشعراء في كل زمان ومكان، فقبل أن تتجلى الحقيقة الكبرى ساطعة مبهرة إثر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول الوحي، ونزول آي الذكر الحكيم، كان هناك فريقان من الشعراء لكل منهما موقفه الخاص، فلم ينغمسا فيما انغمس فيه غيرهما من مشاركة في الحياة العامة، إذ مارس الشعراء المنتمون لهما لونا من ألوان الغياب عن المواقع المحيطة بهم، كان الفريق الأول يمهد للعهد القادم ويرهص بالحدث الجلل الذي انعطف بالبشرية كلها إلى مدار جديد، وقد تمثل هؤلاء في الشعراء الحنفاء.

بقلم: د. محمد صالح الشنطي*
الأردن

أما الفريق الثاني الذي ظهر بعد انتشار الإسلام في أرجاء الدنيا وإشراقة شمس التوحيد فقد أشرع الأبواب أمام السفر الدائم فيما يعتقدونه فضاء الروح والغياب المطلق عبر مدارج الشعر، يتغنون بالوجد الدائم والشوق المتصل الى ذلك العالم الأثيري الذي تخيلوه وأمعنوا في السعي بحثا عنه عازفين عن متع الدنيا غارقين في عوالمهم الخاصة، تجمح بهم نزعاتهم وتطوح بقوافيهم معتقدات دخيلة وأفكار هجينة فدأبوا على ممارسة طقوس وعادات غريبة كل الغرابة عن الإسلام .

كان الشعراء الحنفاء أنموذجا في يقظة الحس وعمق الإدراك، وقدوة في الوعي بفساد الواقع وجسامة الخلل وغياب الحقيقة في غمرة انخراط الناس واشتغالهم في أمر معاشهم وأهواء محيطهم.

ويروعنا في أشعار هذه الطائفة موقفها الرائد فكريا وفنيا على حد سواء، كان جلاء لحقيقة ما يعتقدونه ويؤمنون به، حتى إذا حزبهم الأمر لاذوا بالعزلة تسجيلا لموقف واحتجاجا على ممارسات ينكرونها كل الإنكار، ولعل ما فعله زيد بن عمرو بن نفيل يسلط الضوء على هذه الحقيقة الساطعة، إذ فارق قومه واعتزل الأوثان وحرم على نفسه الميتة والدم، ونهى عن قتل البنات ووأدهن، وقد عمد وكيع بن سلمة الإيادي إلى مثل ذلك حين أقام صرحا خاصا به مفارقا لسنن قومه .

وواضح مما روته كتب الأدب من أخبار هؤلاء الشعراء أنهم لم يقتصروا في تمردهم على الواقع الفاسد وخروجهم من ربقة التقاليد السائدة، بل ترجموا ذلك في أشعارهم رؤى ومفاهيم وتشكيلا جماليا مفارقا لما فعلته الطوائف الأخرى من شعراء الصعلكة، فقد خلت قصائدهم مما كان يثقل القصيدة الجاهلية من ترهل فني وموضوعي، كذكر الطلل والانسياق وراء الوصف المكرور والمعاد والتشبث بالتقاليد الفنية التي ابتذلتها الأقلام من كثرة الاستعمال، فكانت ألفاظهم تنساب سهلة لينة في مقطوعات قصيرة أشبه بإشراقات تصفو فيها روح الشاعر من كدر الحياة، ومما يثير الاستغراب حقا انصراف الباحثين المعاصرين عن دراسة هؤلاء إلا في أحيان قليلة وإبراز تميزهم في حين تكاثرت

* كاتب وناقد أردني ، أستاذ بكلية المعلمين بحائل - السعودية.

الدراسات المختصة بالصعاليك وفئات أخرى من المارقين وأصحاب الشذوذ والعقوق .

وفي اعتقادي ان الشعراء الحنفاء يمثلون خروجاً إيجابياً على الاعتيادي والمألوف،فتمردهم كان حضارياً روحياً في حين كان الصعاليك يرفضون واقعهم رفضاًسلبياً شابه غير قليل من العنف الظالم والخصومة الدموية.

وكثيرا ما نجد أنفسنا باحثين عن الحقيقة وهي قريبة المتناول سهلة الإدراك، ولكن الحقائق المطلقة والثوابت الراسخة لم يتوصل إليها الإنسان إلا عن طريق الوحي، غير أن ما يثير الاستغراب حقا هو أن يعمد الكثيرون إلى العناصر المهمشة في تراثنا فيستثمرونها في إبراز رؤاهم للواقع، إذ نالت ثورة الزنج وحركة القرامطة، وبعض الطوائف التي غالت في تصوفها وانحرافها اهتمام العديد من الشعراء فأضفوا على هذه العناصر دلالات بالغوا في استنتاجها مما جعل ظلالا من الشك تغمر مقاصدهم ونواياهم .

أليس معيبا أن تركز ثقافتنا المعاصرة على حركات ضالة ومضلة كانت حربا على المسلمين حيث امتهنت الكرامة الإنسانية ؟.. وقصيدة ابن الرومي في وصف خراب البصرة أيام ثورة الزنج، وما أوقعه هؤلاء في حرائر المسلمين من مهانة وما ارتكبوه من مجازر للشيوخ والأطفال والنساء خير شاهد على ذلك. ثم تأتي زمرة من الشعراء لتستلهم هذه الحركة بوصفها ثورة من أجل الحرية، ويأتي عدد من النقاد ليدبجوا الدراسات حول توظيف هؤلاء وأولئك لما يسمونه التراث الحي في تاريخنا، فضلا عن استلهام كتابات المتصوفة مثل النفري التي اعتبرها بعض الدارسين فتحا إبداعيا في اللغة . وأنها تفجير للطاقات الدلالية الكامنة، وهي في حقيقتها ذات دلالات طقسية محددة لها معنى ظاهر وآخر باطن مجهول القصد والهدف .

لعل ذلك من أمراض الحركة الإبداعية التي آن الأوان للتخلص منها بعد سلسلة الانتاكاسات الإبداعية التي منيت بها الثقافة العربية، ومن ثم أقصيت عن مجال التأثير الفاعل في واقعنا وتردت في وهدة التهميش والعزلة .■

اللذة الراقية

شعر: فيصل محمد الحجي
سورية

فتشت مابين اللذائذ لم أجد
- رغم العناء - كلذة الإنجازِ
فالوقت دَيْن .. والنشاط سداده
فانهض لكل مهمة كالبازي
وانظر إلى الخيل الأصيلة في الوغى
تسعى لغايتها بلا مهمازِ
وانظر حمار (الشيخ) يمشي خاملا
فيسوقه بالسوط والعكازِ
فكن الأصيل ولا تكن عبد العصا
يغفو .. فتقرعه على الأعجازِ
واربأ بنفسك أن تكون مقصرا
في ركب مهزوم وظل موازِ
فالجد درب الصاعدين إلى العلا
والعجز درب مذلة ومخازِ